أصداء الحروب الصليبية في مصر و الشام على المغاربة "ردود الفعل الاوّلية"

أ/ بن خيرة أحمد/ قسم العلوم الانسانية/جامعة الشهيد حمه لخضر.

الملخص:

لم تكن هذه الدراسة تهدف الى رصد حركة الصليبيين إلى المشرق أو إلى المغرب الإسلاميين، و إنما ضبط إيقاع ردود فعل المسلمين تجاهها، ومعرفة الغرض منها على وجه التحديد، و مقاربة مناخ التضامن والتكافل بين المسلمين في مشرقهم وفي مغربهم، على غير ما صعيد، وذلك محصلة لاستشعارهم مدى خطورة «الحرب الصليبية» التي استهدفت الإسلام، ديناً ودولة، تارة بذريعة إستعادة قبر السيد المسيح في فلسطين، وطوراً بذريعة ما سمي بـ«حرب الاسترداد» التي جنَّد لها الغرب الأوربي ما تيسر له من قوة، مستفيداً من حالة التهافت والتشظِّي التي كان يعاني منها المسلمون في المشرق وفي المغرب على حدٍّ سواء ،وبشكل عام فإن هذه الدراسة تقوم على فكرة مؤداها إبراز مشاعر و ردود الفعل الأولية إزاء الهجمة الصليبية.

Summary

This study was not intended to monitor the movement of the Crusaders to the Orient or the Islamic Maghreb, But to control the rhythm of the reactions of Muslims towards them, and know the purpose of them, specifically, And know their purpose specifically, And approach the climate of solidarity and solidarity among Muslims in their bright and in Maghreb , Religion and state, Under the pretext of restoring the tomb of Jesus Christ in

Palestine, And developed under the pretext of the so-called "war of recapture," which recruited the Western European strength, taking advantage of the state of flare and fragmentation suffered by Muslims in the East and in Maghreb alike, In general, this study is based on the idea of highlighting the initial feelings and reactions to the crusade.

المقدمة

شهدت البلاد الإسلامية هجمة عسكرية شرسة على شكل معارك زاحفة شنّها الغرب الأوربي المسيحي مستهدفا الإسلام دينا و دولة ، عرفت تلك السلسلة من المعارك و الحروب على مدى التاريخ الإسلامي باسم «الحروب الصليبية» ،و قد دامت الحروب الصليبية قرنين من الزمان، وساهمت في إضعاف المسلمين و كرست الهيمنة النصرانية على بعض المناطق الإسلامية المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، لاسيما سواحل بلاد الشام وما جاورها من مناطق ، بل مكنت القوى المسيحية من تأسيس ثلاث إمارات ومملكة بيت المقدس، وقد ولدت هذه الأحداث أصداء في كل أنحاء العالم الإسلامي، و أفرزت ردود فعل عبرت عنها المجتمعات الإسلامية بأشكال مختلفة ومتفاوتة الأهمية، وعلى صعيد الجهة الغربية من العالم الإسلامي فقد سجلت المصادر ردود فعل مختلفة لما أصاب القدس من جراء تلك الاحداث التي آثارت وشائج الأخوة بين شطري العالم الاسلامي وأبانت عن حماس منقطع النظير لروابط الدين و الدم ترجمت في الاخير في شكل مشاركة مغربية مكثفة في الجهاد ضد الصليبيين بصفة عامة، والجهاد البحري في الجزء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ،و في بالبحر الأحمر بصفة خاصة.

ومع نهاية القرن الخامس الهجري انطلقت الحروب الصليبية في بلاد المشرق الإسلامي التي نتج عنها وقوع بيت القدس سنة 492هـ/1098م، و بقي الصليبيون في المشرق، و بذلك يكون المسلمين في الناحية الشرقية قد واجهوا الوضع نفسه عقب المغرب إثر عبور يوسف بن تاشفين الى الاندلس لنصرة مسلمي الاندلس من تطاول ملوك إسبانيا عليهم، و اللافت للنظر ان تلك الأحداث قد تزامنت في فترة أقل ما يقال عنها أنها مرحلة ضعف و وهن أصاب الدولة المرابطية ، و من المفيد أن الشرق قد استفاق مع الدولة النورية و تجلت قوته مع الأيوبيين يوم احتل صلاح الدين القدس عام 583هـ/1187م ،إذن فالعدو واحد و ان تعددت مضاربه ، و المغرب و المشرق من امة الإسلام سواء كانوا تحت ظل الدولة الموحدين أو الأيوبيين[1] ، و السؤال الذي يتبادر الى الذهن هل حاولت هاتين القوتين الإسلاميتين المتزامنتين تنسيق الجهود و التعاون؟

1- الحملات صليبية أوضاع المشرق الإسلامي

وبالرغم من أن اوضاع العالم الاسلامي لم تكن على أحسن ما يرام فقد كانت أراضي الخلافة العباسية خاضعة لنفوذ قوى متعددة و متنافرة يسودها النزاع و الخصام من أجل التوسع ، ومن ناحية أخرى فقد انزوى خلفاء بني العباس الأواخر في قصورهم و رضوا بالاسم للخلافة بعد أن خرجت عليهم غالبية الأراضي، ففي الناحية الشرقية استولى السلاجقة على أغلب أراضي الخلافة العباسية و خاضوا حروبا للذود عن الاسلام ضد البيزنطيين أهمها معركة ملاذكرد،[2] غير ان قوة السلاجقة ما لبثت أن تراجعت بعد وفاة ملكهم شاه 485هـ/1092م، وفي ناحية أخرى ظهرت الأتابكيات و حكامها الأتابكة

في دمشق ، وو أتابكة الموصل بزعامة عماد الدين بن زنكي ،و قد امتد نفوذ الأتابكة[3] من العراق شمالا الى شمال الشام و في مصر حكم الفاطميون مصر و الشام الذي دخلوا فيه مع السلاجقة في منافسة شديدة خسروا فيها الفاطميون معظم المعارك ضد السلاجقة و تراجعوا حتى تقلص نفوذهم في مصر فقط ،لكن ذلك لم يثنيهم عن استرجاع الشام فعندما ضعف السلاجقة و لاحت أفق الهجمة الصليبية حاول الفاطميون ركوب الموجة و استعادة الموقف مجددا في الشام[4].

و في خضم تلك الاحداث بلي العالم الإسلامي بسيل عارم لجحافل الصلبيين من القوى المسيحية دفعت بها البابوية دفعا بهدف القضاء على دولة الإسلام و إذلال المسلمين، كان لتلك الحملات المسيحية الأثر البالغ في جوانب حضارية كثيرة على المجتمعين الإسلامي و المسيحي، و لم يقتصر حدود الأثر الإسلامي في أوربا على المدى القصير فقد برزت معالم احتكاك جموع الغرب المسيحي بالمسلمين على هيئة دعائم نهضة جنى الغرب الاوربي ثمارها، و من ناحية أخرى كانت تلك المعارك عاملا لاستنهاض الضمير الإسلامي مشارقيا و مغاربيا، و في هذا الاتجاه برز انفعال المغاربة مع أحداثها رغم بعد المسافة إلا أن ذلك لم يعد حاجزا لأن ألم ذوي القربي و نداء العقيدة يهون كل الصعاب و يذلل كل العقبات، و هذا ما عبرت عنه ردود الأفعال المغربية اتجاه ما يحري في الشام و مصر[5] .

1- صدمة هزيمة الحملة الصليبية الأولى :

لما بلغت مسامع المغاربة أخبار هزيمة المسلمين في الحملة الصليبية الاولى[6] أصابهم لأول وهلة

الذهول ثم الأسى و الشعور بالفجيعة[7] ، لكنهم سرعان ما استعادوا رباطة جأشهم ، و أدركوا أن بذل جهود مضاعفة في صراعهم مع الصليبيين في ميدان المغرب له أهميته ، و أثره البالغ على الصراع الإسلامي الصليبي في ميدان المشرق للترابط الوثيق بين الغزاة في كلا الميدانين، و انعكس ذلك المجهود في صور شتى ، فثبات المرابطين القوي لهجمات النصارى الاسبان في الأندلس، و ردهم عليها بهجمات مماثلة هو إحدى هذه الصور ، و مهاجمة الأسطول الزيري في زمن يحي بن تميم للسفن الايطالية التي كانت الشريان الرئيسي لإمداد الصليبين في المشرق ، و الاغارة على شواطئ أوربا الجنوبية هذا من جهة على الجانب الرسمي.[8]

و من جهة ردود الفعل الشعبية فقد أبدت جموع المجاهدين المغاربة منذ بداية هذا الهجوم رغبة الهجرة للمشرق للمشاركة في جهاد الصليبيين، أن اندلا ع المعارك بين المسلمين و الصليبيين هزت حمية المغاربة في المشرق فكان العديد منهم يتوجه بعد أداء الحج إلى بلاد الشام لزيارة الأماكن المقدس فكان من تواتيه الفرصة يقرن فريضة الحج بالجهاد لا يدعها تفوته أو لطلب العلم لاستقائه من منابعه الأصلية فيشارك في الجهاد ضد الصليبيين ،و يؤكد ذلك ما ذكره الدكتور ممدوح حسين عن ابن عساكر و يضاف إلى هاتين الفئتين فئة التجار التي تفد إلى المشرق فتساهم في الذود عن ديار الإسلام و أخيرا فئة المجاهدين الذين يقصدون المشرق بنية الجهاد، فقد وجد من بين المغاربة من كان يقسم عمره في المرابطة

سنة في الأندلس و سنة في المشرق يقيم بينها سنة في اهله فهذا تعبير آخر عن الصدى الذي أحدثه نجاح الحملة الصليبية أولى في المشرق في نفوس مسلمي المغرب[9].

و من الأصداء الأخرى للحروب الصليبية داخل المغرب ، فقد تطلع المغاربة لتحرير بيت المقدس من وقت مبكر، ومن المهتمين المغاربة بفتح القدس منذ فترة بعيدة، الإمام أبو الحكم بن برجان، عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرحال محمد اللخمي الإفريقي الاشبيلي، دفين مراكش عام 536هـ/1141م، و قد لوح في تفسيره عند طالعة سورة الروم[10] ، إلى تاريخ فتح بيت المقدس عام 583هـ/1187م [11].

و لتوضيح ما غمض من كلام بن برجان ، فقد أشار أبوزكريا، يحي بن أبي الحجاج اللبلي الأصل، المراكشي النشأة ، المتوفى حدود 590هـ/1193م، أو بعدها بقليل «وهو الذي استخرج من تفسير أبي الحكم بن برجان – من كلامه على سورة «ألم غلبت الروم » من سورة الروم الآية (1-2)-فتح بيت المقدس في الوقت الذي فتح فيه على المسلمين[12] ، و حقق و عين ما كان أغمض فيه ابن برجان و أبهم، وقف عليه المنصور فبقى مرتقبا له و معتنيا –في نفسه- به، حتى كان ذلك على حسب ما قاله ، فأمر أن يحضر مجلسه و يرتسم في جملة طلبته »،[13] و لنقف قليلا عند الفقرة الأخيرة من كلام ابن الزبير ، لنرى مدى اهتمام يعقوب المنصور بهذا الفتح ، حتى نظم مستخرج تاريخه بين أهل مجلسه العلمي ، فتضف هذه الملاحظة إلى ملف العلاقات بين المنصور الموحدي و صلاح الدين الأيوبي .

و يبرز محي الدين ابن العربي الحاتيي المرسي الأصل رؤيته لبيت المقدس قبل تحريره ، يدعو إلى مقاطعة زيارته ما دام يرزخ تحت الحكم الصليبي و مقدمة مطولة يلخص إلى هذا النداء : «... لهذا حجرنا في هذا الزمان على الناس زيارة بيت المقدس و الإقامة فيه ، لكونه بيد الكفار ، فالولاية لهم و التحكم في المسلمين ، والمسلمون معهم على أسوأ حال ، نعوذ بالله من تحكم الأهواء ، فالزائرون – اليوم – البيت المقدس و المقيمون فيه هن المسلمين ، هم الذين قال الله فيهم : ضل سعيهم في الحياة الدنيا و هم يحسبون صنعا[14].

أدرك المغاربة و الأندلسيين إن بذل جهود مضاعفة كفيل باستعادة رباطة الجأش ، وانعكس ذلك المجهود في صور شتى فقيام المرابطين برد هجمات الصليبيين ، ومنازلة أسطولهم لأسطولي بيزا و جنوة اللذين احتلا جزيرة يابسة في سنة 508هـ/1113م ثم هاجما جزيرة ميورقة بعد ذلك ، وطرد هاذين الأسطولين هي صورة أخرى للتضامن المغربي مع المشرق[15] ، و من ناحية أخرى نشط الأسطول الزيري في زمن يحي بن تميم في مهاجمة السفن الايطالية التي كانت تقوم بإمداد الصليبيين في المشرق ، كما أن جموع المجاهدين المغاربة أخذت منذ بداية هذا الهجوم تقصد المشرق للمشاركة في جهاد الصليبيين [16] ،كل هذا كان تعبيرا عن الصدى الذي أحدثته نجاح الحملة الصليبية الأولى في المشرق في نفوس مسلمي المغرب الذي أكدوا بتأثرهم بما يحدث للمشارقة مهما بعدت المسافة .

2- فرحة المغاربة بفتح بيت المقدس

و مما يتصل بابتهاج بهذا الفتح العظيم، الاستبشار الذي عم المسلمين بمنطقة الغرب الإسلامي، فرحا ابتهاجا بما تم من فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي، وذلك ما يجليه ابن عبد الملك و هو يترجم للرحالة ابن جبير : «و لما شاع الخبر المبهج المسلمين جميعا حينئذ بفتح بيت المقدس ... و كان ذلك من أقوى الأسباب التي بعثته (ابن جبير) على الرحلة الثانية ، وقال : و قضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام و زيارة المصطفى ، و زيارة المساجد الثلاث ، في عام واحد متوجها ، و في شهر واحد منصرفا [17].

ويشير إسهام عبد المنعم بن عبد الله بن حسان الغساني الأندلسي الجلياني (ت603هـ/1206م)[18]، هذا العالم الأندلسي إلى مدى التفاعل الثقافي بين الغرب الإسلامي، وأحداث القدس العربية والإسلامية، لاسيما حادثة التحرير من الاحتلال الصليبي، التي أثارت المشاعر، ودفعت بها الأديب إلى التأليف لتخليد تلك الذكرى العزيزة على قلوب المسلمين جميعاً في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، و قد عبر عن اغتباطه بانتصار صلاح الدين على الصليبيين من خلال قصيدة بعث بها إلى صلاح الدين الأيوبي سنة 582هـ/1186م قال فيها

فيا ملكا لم يبـــق للديـن غيـره وهت عمد الإسلام فاشدد لها دعما

فشؤم فريق الشرك في الشام طائر فقـص جناحيه بأقصى القوى قصما

خصصت بتمكين فعم العدا ردى فأنهم يأجوج ، افرغ بهم ردما

إذا اصفرت من آل الأصفر ساحة المقدس ضاهت فتح ام القرى قدما

فذا المسجد الأقصى وهمتك العدى وعزمتك القصوى ورميتك الصما

فما هو إلا أن تهم و قد أتت فتوح كمل فاض الخضم الذي طما

و أن أتت لم ترد الفرنج بوقعة فمن ذا الذي يقوي لبنيانها هدما

وما كل حين تمكن المرء فرصة ولا كل حال أمكنت تقتضي غنما

و ليس كفتح القدس منية قادر وما أن تلقاها سوى يوسف جزما[19].

و جاء هذا المضمون في قصيدة المشركين بعزته وقدرته[20] .

ولكنه ما أن سمع بتحريرها حتى رجع إلى المشرق، فزارها سنة 587هـ1191 /م و كان في مطلع تهنئة الرحالة ابن جبير ، مشيدا بصلاح الدين :

أطلت على افقك الزاهر سعود من الفلك الدائر

إلى أن يقول

فتحت المقدس من أرضه فعادت إلى وصفها الطاهر

وجئت إلى قدسه المرتضى فخلصته من يـد الكافـر

و أعليت فيـــه منا الهـدى و احييت من رسمه الدائر

لكم ذخر الله هـــــذه الفتـو ح من الزمن الاول الغابـر

وخصك من بعـــــد فاروقـه بها لاصطناعك في الآخـر[21]

و عاد مرة ثالثة سنة 597هـ/1200م، ليسكن مكة المكرمة، وينتقل منها إلى القدس، وبقي يتردد بين الحرمين الشريفين، ويحدّث فيهما إلى أن استقر أخيراً بالإسكندرية[22] .

وبعد انتصار صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين وفتح القدس الشريف (خاطب ...يعقوب ...وأخبره بأنه هزم روم الشام واستأصل شأفتهم وفتح بيت المقدس شرفها الله وجميع تلك البلاد التي كانت بأيدي أعداء الله ...من كتاب وصل من الإسكندرية تاريخه في العشر الوسط من شعبان المكرم سنة 583) [1].

و كان المغاربة قد اهتزوا فرحا للبشرى حيث يشير ابن جبير الى ذلك بقوله : (وكان له في النفوس من الفرح والجذل ما لا خفاء فيه) ،و هو ما حفزهم بعد ذلك إلى مقارعة الأعداء من النيل منهم على ما اقترفوه من ذنب في الأندلسيين فكان نصر الارك نتيجة ذلك [2].

هذا فيما يخص إيقاع ردود الفعل الخاصة بحادثتي فاجعة هزيمة المسلمين في الحملة الأولى و بشارة فتح القدس على المستوى الشعبي، و الحق أن هذه الأمثلة تعكس النبض الحقيقي لمشاعر أهل المغرب و الأندلس لان كل التاريخ بيّن مدى تفاعل المغرب مع المشرق على جميع الأصعدة، و لم يحدث هذا على المستوى الشعبي فحسب بل أثر في نمطية العلاقات الإسلامية الإسلامية على المعطيات الجديدة التي برزت في شكل هجمة صليبية تستهدف الإسلام دينا و أرضا و بشرا .

3- الهجمة الصليبية عامل توحيد الصف الإسلامي مغربه بمشرقه

إن الهجوم الصليبي على المسلمين – مادام العدو واحد- جعلهم يدركون ضرورة التنسيق لتوحيد الجبهة الإسلامية لأن الهجوم المسعور الذي شنته الحركة الصليبية على المسلمين في المشرق و المغرب أقنع حكامهم بضرورة العمل على توحيد جهودهم للتصدي لهذا العدوان فجرت إتصالات عديدة لهذا الغرض على المستوى الرسمي فقد كانت الحملات الصليبية فرصة لتقليص هوة الخلاف و شبه القطيعة السياسية من خلال المراسلات بين حكام المسلمين أنفسهم أو بينهم و بين الملوك المسيحيين[23]، كتلك التي

جرت بين ملوك الطوائف في الأندلس و يوسف بن تاشفين و اتصالات يوسف بن تاشفين بالدولة العباسية للعمل على تحقيق وحدة شاملة بين المغرب و المشرق[24]، وكسب دعم الخلافة العباسية المعنوي له في جهوده ضد المسيحيين من ناحية و ضد ملوك الطوائف الذين بخلافاتهم و صلاتهم بالعدو يعرقلون توحيد الصف الإسلامي في مواجهة العدو[25].

ومن ناحية جرت اتصالات أهل صقلية بالدولة الزيرية لمواجهة الخطر البيزنطي ثم الخطر النورماني بعد ذلك و كان الغرض من هذه الاتصالات هو خلق تعاون أفضل بين حكام البلاد الإسلامية و العمل على توحيد الجهود لمواجهة هذا العدوان[26] .

و قد عبر صلاح الدين عن نواياه للانتقال في المشروع الذي يدور في خلده آنئذ بخصوص توحيد الجبهة الإسلامية و محاربة الصليبيين لأحد المغاربة الذين صاحبوا صلاح الدين في جهاده ، وهو الأمير عبد العزيز تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي و هو حفيد الملك بن باديس الصنهاجي في إفريقية قال :((لما مرض صلاح الدين مرضه الشديد سنة (582هـ1186م) نذر إذا ابل من مرضه الشديد فانه لن يقاتل أحدا من المسلمين، وأنه سيكرس جهاده ضد الصليبيين)) وقد نجاه الله ببركة هذا العذر فكان هذا النذر هو سبب إراقة دم البرنس أرناط[27].

وقد أثارت الغارة الوحشية على مدينة الإسكندرية ، موجة من الغضب و السخط في أنحاء العالم الإسلامي و لا سيما في بلاد المغرب و الأندلس التي كانت صلتها

بالإسكندرية وثيقة قوية[28]، ففي رسالة كتبها وزير مملكة غرناطة لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه أبي عبد الله محمد الخامس الغني بالله الشهير بابن الأحمر إلى سلطان بني مرين بفاس يصف له فيها حملته على جيان Jean التابعة لملك قشتالة في المحرم (768هـ/1366م) رغم المعاهدات المبرمة بينهم أي بعد سنة كاملة من حادثة الإسكندرية و يضمنها ما دفعه إلى حركته هذه ضد الأسبان و هو الأخذ بثأر الإسكندرية فجاء محتوى الرسالة التي كتبها ملك غرناطة محمد الخامس الغني بالله إلى سلطان بني مرين بفاس ،حول أحداث هذه الحملة ، نجد وصفا صريحا لدوافعها بقوله : «فنوينا أن نرفع بها هضم جانب الإسكندرية ، و نقوم بفرض الكفاية المرضية ، فاستدعينا أهل الجهاد ، و نقصنا أطراف البلاد ، ممن أولى الجلاد في المحرم(768هـ/1366م) ، بعد سنة من حادث الإسكندرية ، و نادى منادى الحمية ، يالثارات أهل الإسكندرية ! يالثارات أهل الإسكندرية ! »، فتنادى المسلمون في الأندلس.[29]

لا شك أن هذه الصيحة الجميلة التي كانت شعار الأندلسيين في هجومهم على جيان، تعبر عن موجة الغضب التي أثارتها بالأندلس غارة القبارصة على الإسكندرية ، كما أنها تحمل في طياتها معاني الأخوة و التضامن بين الشعوب الإسلامية .

و يذكر النويري أن بعض الأندلسيين القادمين في الركب المغربي بسبب الحج[30]، اخبروه بان ملك قشتالة أرسل إلى سلطان غرناطة يطلب منه الصلح بعد داخله الرعب بسبب تخريبه لمدائنه فقال السلطان لرسوله« هو يريد أن يصالحني بينما تمضي النصارى إلى سواحل المسلمين بأرض مصر يقاتلونهم !؟ لا كان ذلك ابدا حتى ترد أموال الإسكندرية

إليها من اسراها و يأتيني كتاب صاحب مصر بأنكم اصطلحتم معه لأنه خادم الحرمين الشريفين و انا خادمه بسبب ذلك ، حينئذ اصالح صاحبك القند (القمط أو الكونت) و الا فالسيف بيني و بينه حتى املك اشبيلية و قرطبة و طليطلة ، وأعيدها للمسلمين كما كانت لهم » فلما بلغ القند مقالته قصر لسانه عن رد جوبه[31]

و يضيف النويري السكندري إلى أن السلطان ابن الأحمر بعث أسارى الفرنج الذين وقعوا في أسره إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى ثم جرء بيعهم في مدينة فاس نفسها ، و قدر النويري عدد هؤلاء الأسرى من الرجال و النساء و الأطفال بسبعة آلاف و ثمانمائة أسير و أسيرة32 . ونعتقد بأن ذلك كان بمثابة رد على الاعتداء الصليبي للإسكندرية و من ناحية أخرى يعبر عن التضامن المغربي مع المشارقة .

أما على الصعيد الشعبي ، فقد عبر المغاربة عن استيائهم و حزنهم بإنشاد المراثي و القصائد التي يرثون بها الإسكندرية بمناسبة هذه الغارة و مثال ذلك قول الشاعر الصوفي المغربي احمد بن أبي حجلة 33 التلمساني الأصل التي ارثى بها مدينة الإسكندرية

و حقق عندي للفرنج مكائد فليت ولي الأمر يدري ما أدري

فمن لي بفرسان الجزيرة عندما تعامل أهل الكفر في البحر بالنحر

و من لي بأسطول أهل سبتة بغربائهم مثل النسور إذا تسرى

شرح مختار العبادي القصيدة نقلا عن النويري بالقول التالي أن الشاعر يعني« بولي الامر اذ ذاك الأتابك يبلغا الخاصكى حاكم مصر ، و قصد بقوله مكائد الحرب ، أن تلك المكائد يعرفها أهل سبتة و من جاورهم من المسلمين ، اذ أن الفرنج التي بجزيرة الأندلس يخشونهم لحذقهم و معرفتهم بقتالهم و غربانهم المرصدة لذلك ، و قصده أيضا تحريض الأمير يبلغا على تكثيره بالإسكندرية قواد المغاربة لأنهم فرسان البحر لاعتيادهم لذلك ، و قيل أن عدد أبواب سبتة واحد و ثلاثون بابا دنها واحد للبر و الباقي من دار الصناعة للبحر ، و داخل كل باب دنها غراب راكب على حماره من الخشب المعتدلة ، فإذا جرت حركة مع الفرنج ، أو أتتهم افروطة (أسطول) أخرجت القياد تلك الغربان تجرهم حمرها فترمي تلك الغربان في البحر دفعة واحدة ، و قد شحنت برماتها و قيادها و أسلحتها و أزوادها ، وقد صاروا على الكفار كاشتعال النار ، فلو كان بصناعة الإسكندرية أمثالهم ، لحفظت بحفظ الله دارها ، ولنتفى عنها عارها ، لكن كان ذلك في الكتاب مستورا ، وكان أمر الله قدرا مقدورا».[34]

أما في مصر والشام فقد تجلى غضب المغاربة في ردود فعل سريعة تتمثل في جمع الأموال و إعداد الأساطيل ، فيذكر العبادي عن النويري أن أعدادا كبيرة من المغاربة قيدوا أسماءهم بأجر معلوم للعمل في الأساطيل لتحرير الإسكندرية.[35]

و نتيجة ما أبدوه المغاربة من ضروب للتضحية و الجهاد كانت نكاية العدو بالمغاربة شديدة مما أحفظه عليهم و بالغ في الإساءة إليهم حتى أنه فرض على المارين منهم بالبلاد الواقعة تحت سيطرته دفع ضريبة رأس عن كل فرد دون غيرهم إمعانا منه في القسوة

عليهم و في ذلك يقول ابن جبير : «وقال الفرنج : أن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا و نسالمهم و لا نرزأهم شيئا فلما تعرضوا لحربنا و تألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم ، فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو »[36].

خاتمة

ان الحملات التي شنّها الغرب الأوربي المسيحي على البلاد الإسلامية هي حروب مكنت أوربا من توطيد سيطرتها في العديد من المناطق الإسلامية المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، وخاصة سواحل بلاد الشام والمناطق المجاورة لها، حيث تمكن الفرنجة من تأسيس ثلاث إمارات ومملكة بيت المقدس. وكان لهذه الأحداث أصداء في كل أنحاء العالم الإسلامي و لاسيما بلاد المغرب ، وقد أفرزت ردود فعل عبر عنها المغاربة بأشكال مختلفة ومتفاوتة الأهمية، كما سجلت المصادر وجود مشاركة مغربية مكثفة في الجهاد ضد الصليبيين بصفة عامة كإنعكاس لعميق الأثر، و ما سجله المجاهدون المغاربة على صعيد الجهاد البحري في الجزء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وبالبحر الأحمر بصفة خاصة لدليل على قوة الحضور المغربي و عميق وشائج الاخوة التي تربطهم بأشقاهم ، و من ناحية أخرى دفعتهم أحداث المشرق على مقارعة الصليبيين في الاندلس كمظهر لتشبع بروح الجهاد ضد المسيحيين أينما هددوا الإسلام و المسلمين .

الهوامش:

1 عز الدين عمر، أحمد موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، ط1، 1983، ص12

2 تلك المعركة التي كانت آثارها كبيرة على الصعيدين المحلي والدولي. فعلى صعيد المنطقة، فإنها فتحت أبواب آسية الصغرى أمام السلاجقة، ودحرت القوات البيزنطية باتجاه الغرب، وفسحت الفرصة للسلاجقة بتأسيس دولة سلاجقة الروم. وعلى الصعيد الخارجي، فإن هذه المعركة كانت سبباً من أسباب توحيد قلوب أوروبا المسيحية ضد المشرق الاسلامي، إثر استنجاد أباطرة القسطنطينية بالبابوية، لرد خطر السلاجقة، الذين أخذوا في اجتياح ممتلكاتهم ، للمزيد ابن الأثير، ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين (ت 630هـ)، ط1، 1417هـ / 1997م ،ج10، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان ، ((حوادث سنة 463هـ))؛ أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالغرب، ج2 (بيروت: دار المكشوف، 1956) ص110– 111.، سهيل زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية (دمشق: دار الرسالة، 1972)، ص138 وما بعدها؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص96 وما بعدها.

3 (الأتابك) لفظ تركي مكون من (أتا) أي الأب المربي، (وبك) أي الأمير. ومعنى ذلك أنه مربي الأمير أو الملك.

4 سعيد عبدالفتاح عاشور، الحركة الصليبية ،ج1،مكتبة انجلو المصرية ،القاهرة ،ط1 ، 2010، ص ص116– 117.

5 نفسه،ج1،ص 79.

6 الحملة الصليبية الأولى (1096–1099م) :هي حملة عسكرية شنها الصليبيون تلبية للدعوة التي أطلقها البابا أوربان الثاني سنة 1095م في كليرمونت جنوب فرنسا من أجل تخليص القدس

وعموم الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وإرجاعها للسيطرة المسيحية. شارك في الحملةعدد من القادة أبرزهم جودفري دوق اللورين، وريموند دوق الناربون، وبوهيموند ؛ سهيل زكار ، المرجع السابق ، ص27.

7 لأن الحملة الصليبية الأولى490هـ/1096م نجم عنها تأسيس إمارة صليبية سنة491هـ/1097م في الرها و انطاكية ثم في بيت المقدس سنة 492هـ/1098م ؛للمزيد انظر ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين (ت 630هـ)، ط1، 1417هـ / 1997م ،ج10، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان ، ص272؛سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ص177-182.

8 أنظر ابن الكردبوس ، الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، تح بوباية عبد القادر ،دار الكتب العلمية ، ص122؛ ممدوح حسين و شاكر مصطفى ، دار عمار ، عمان، 1419 هـ - 1998 م ،ص. 149 .

9 ممدوح حسين و شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص 182 .

10 يقول ابن كثير انه بنى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون ، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا و يغلبون في سنة كذا وقف ؛ ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: 774هـ)، البداية و النهاية ،تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج16 ، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع ،ط1 ، 1418هـ - 1997 م ،ص593.

11 كان عبدا صالحا و له تفسير القرآن الكريم ؛محمد المنوني ،"نماذج من مساهمات الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية بالشام و ما إليه "، مجلة كلية الآداب ع 12-22، السنة1996/1997، ص146.

12 قال أبوشامة أنها نجامة وافقت إصابة ؛أبوشامة، المصدر السابق ، ج2، ص.113.

13 محمد المنوني ، المرجع السابق، ص146.

14 نفسه ، ص146.

15 انظر ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ص122 و ما بعدها ؛ ممدوح حسين و شاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص151.

16 ممدوح شاكر و مصطفى شاكر ، المرجع السابق، ص151 .

17 محمد المنوني ، المرجع السابق، ص ص146-147.

18 هو عبد المنعم عمر بن حسان الأديب الشاعر ،الجلياني نسبة إلى جليانة الاندلسية من اعمال وادي ياش ، سكن دمشق ، ثم استقر بمصر ، وعاصر صلاح الدين منذ قدومه إليها سنة 562هـ/1166م، وهو شاعر متمكن خصص جانبا كبيرا من شعره عن بيت المقدس و التبشير بتحريرها من الصليبيين ، توفي في دمشق سنة 603هـ/1206؛ انظر : موفق الدين بن أبي اصبيعة ،عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،تح نزار رضا ،منشورات مكتبة الحياة ،بيروت 1965،ص.657.

19 أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة(ت 665) ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تح إبراهيم الزيبق ،ج2، مؤسسة الرسالة ،ط1، بيروت ، 1997/1418 ، ص151.

20 ابن جبير ، رحلة ابن جبير، منشورات دار ومكتبة الهلال،بيروت، 1981، ص255.

21 أبوشامة ،المصدر السابق ،ج 2،ص ص105- 106؛ احمد بدوي ،الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ،دار نهضة مصر ، الطبعة الثانية، 2001،ص442.

22 ابن الخطيب محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب (ت: 776هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت ،1424،ص232.

23 من ذلك الرسائل التي وجهها صلاح الدين الأيوبي إلى الملك الموحدي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يطلب منه إرسال نجدة بحرية ، والرسالتان اللتان بعث السلطان المملوكي بيبرس احديهما إلى ملك فرنسا لويس التاسع الذي قاد حملة صليبية إلى تونس عام 1272/670 ، و الأخرى إلى صاحب تونس محمد بن يحي الهنتاني ، انطوت الرسالة الأولى على تهديد صريح لملك فرنسا بأن

السلطان سيقاتله من دون هوادة إذا ما تابع اعتداءاته على تونس ، ويعلم صاحب تونس في الرسالة الثانية ،بأنه على استعداد لمؤازرته في قتال الفرنج ؛ ممدوح شاكر و مصطفى شاكر ،المرجع السابق، ص162.

24 ابن خلدون ،عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: 808هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،تح خليل شحادة ،ج6، دار الفكر، بيروت ،ط2، 1408 هـ - 1988 م، ص188 ؛ابن الأثير، المصدر السابق ،ج10 ،ص417.

25 ابن الكردبوس ،المصدر السابق ، ص122 و ما بعدها .

26 ممدوح حسين و شاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص.153.

27 أحمد مختار العبادى ، في تاريخ الأيوبيين و المماليك ،دار النهضة ، بيروت ،1995، ص53.

28 أحمد مختار العبادى ،" دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي" ، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، 1976 ص93.

29 محمد بن القاسم بن محمد النويري الاسكندراني ، كتاب الإلمام ، تح عزيز سوريال عطية ،دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند ، 1970 ،ج5،ص ص332،331.

30 و قد استقى النويري السكندري هذه الأخبار من المغاربة القادمين إلى الإسكندرية بسبب الحج ، ويذكر أن قاضي رندة – و يدعى أبا الفضل قاسم بن محمد و هو من ضمن المغاربة الوافدين إلى الإسكندرية قد أمده بالمعلومات؛ سكندراني ، المصدر السابق ، ج5، ص340؛أما رندة فهي مدينة قديمة بالأندلس على نهر ينسب إليها ؛ راجع الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى(ت 900) ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، مؤسسة ناصر للثقافة ،ط2، بيروت ،1980،ص269.

31 النويري ، المصدر السابق ،ج 5، ص317

32 نفسه،ج 5، ص ص318-339 من هنا و هناك.

33 احمد بن أبي حجلة الحنبلي 1325-1375 م ، ولد في تلمسان و صار شيخا لتكية منجك ، حج ثم استقر في القاهرة و توفى بالطاعون ، له ديوان الصبابة الذي عارضه الوزير الغرناطي لسان الدين بن خطيب في كتابه محبة الله أو روضة التعريف بالحب الشريف ، نحا ابن أبي حجلة في شعره نحو ابن العربي في التغزل الصوفي ، انظر ،احمد مختار العبادى ، دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي ، الهامش 26 ، ص95 .

34 احمد مختار العبادي ، دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي ، ص ص95-96.

35 نفسه ، ص96.

36 سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر؛ابن جبير ، المصدر السابق ، ص274.